محاضرة 11: الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر قبل الاستقلال

مقدمة: الأنثروبولوجيا رؤية شاملة ودقيقة للواقع الاجتماعي والثقافي لهذا استغلها الاستعمار الحديث لمعرفة خصائص الشعوب التي يريد احتلالها، وقد توصلت فرنسا الاستعمارية إلى أنَ الاحتلال العسكري للجزائر يجب أن يصحبه معرفة بالخصائص الجغرافية للأرض وأيضا الأنماط الثقافية والاجتماعية والدينية السائدة في الأوساط الشعبية الجزائرية.

الاستعمار والأنثروبولوجيا:

عندما فكَرت الدول الأوربية الصناعية في استعمار دول افريقيا وآسيا حاولت في مرحلة أولى معرفة الآخر الذي سيتم استعماره فقامت بدراسته بالاعتماد على رجال الدين والرحَالة والسياسيين والعسكريين، ثم استعانت في مرحلة ثانية بعلماء الأنثروبولوجيا لمعرفة الخصوصيات الثقافية للمجتمعات التي احتلتَها و**في الوقت الذي استعان فيه الاستعمار بخدمات الأنثروبولوجيين استطاع أن يجد مبررات لتوظيف علماء الأنثروبولوجيا لدراسة المستعمرات، تمثلت في غياب الدراسات التاريخية حول هذه الشعوب، وحتى الدراسات التي توفرت قبل الاحتلال الفرنسي بالإضافة إلى قلَتها قامت فرنسا بالتأكَد منها في الميدان، لقد ألصقت بالأنثروبولوجيا تهمة العلم الذي يخدم الاستعمار لا لشيء سوى أنَ البعض رأى أنَ الدراسات المونوغرافية والإثنولوجية التي أنجزها الغرب على الشعوب التي استعمرها عملت على كشف خصوصيات المجتمعات.**[1]

بداية الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر:

ارتبطت الأنثروبولوجيا في الجزائر بحركة المد الاستعماري، وكان العسكريون الفرنسيون أوَل من خاض حقل الدراسة الأنثروبولوجية بوطننا ومن أبرز هؤلاء الضباط الإخوة Marcais وAlfred Bell وCauvel.

وقد مرت هذه الدراسات بمراحل أهمها:

- مرحلة الدراسات الاستكشافية قبل الاحتلال: اعتمدت فرنسا فيها على الدراسات التاريخية والجغرافية لمعرفة تضاريس الجزائر ومسالكها .

---

[1] د. بوحسون العربي: **بين التاريخ والأنثروبولوجي دراسة في الأنثروبولوجيا الاستعمارية**،المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية العدد 2 ص166

- مرحلة الكتابات العسكرية الوصفية الشكلية: في بادئ الأمر قام الضباط الباحثون بتشويه الحقائق وتزوير الواقع فقد كانت كتاباتهم سطحية غير معمَقة وتعتمد على الوصف الشكلي وعجزوا عن الوصول والإحاطة بكل أبعاد الفعل الأنثروبولوجي لأنهم لم يكونوا مختصين في المجال، لقد وصفوا الإنسان الجزائري بالجامد المتحجَر الكسول الذي يعتمد على ثروات الطبيعة السخيَة ووصفوا المجتمع الجزائري بالتخلف والجمود والسلبية والاستسلام والحقارة وهي كلها في الحقيقة تبريرات أخلاقية لعملية الغزو الاستيطاني.

في هذه المرحلة أسَس الضباط مدخلا مهمَا في البحث الأنثروبولوجي عرف ب l'indigenophilie كما قاموا بكتابة القاموس الفرنسي الأمازيغي في 1837.

- مرحلة الدراسات المنهجية: بدأت بعد 1848 بصدور حوليات الجزائر les annales algériennes للكاتب Pélissier وهو مرجع مهم للبحوث الاجتماعية والإنسانية، وقد عرفت هذه المرحلة اهتمام العساكر الباحثين بمعرفة نقاط القوَة والضعف عند الجزائري فقاموا بهدم وتفكيك التركيبة الاجتماعية ودراستها دراسات مفصلة من خلال دراسة الجماعات الدينية وقوَتها ودراسة أنظمة التحالف بين القبائل وقوَة الإيمان لدى الجزائري وغيرها من المواضيع، وبذلك انتقلت الأنثروبولوجيا العسكرية من الاستراتيجية إلى التكتيك ثم البحث في أدق التفاصيل، في هذه الفترة قام Guinar و Boitel بدراسة منطقة ترارة بالقرب من تلمسان كما قام Hanotaux وLetourneux سنة 1893 بدراسة منطقة القبائل بتيزي وزو لمعرفة عاداتها وأعرافها.[2]

لقد قام الفرنسيون بدراسة المورفولوجيا الاجتماعية واللهجات المحلية والمعتقدات ووصف وتحديد الأقاليم وغيرها من المواضيع، وابتداء من 1925 انضم إلى الباحثين مجموعة من الجامعيين المختصين من أمثال Germaine Tillion وThérèse Rivière و Jeanne Jouin وآخرون، وفي 1955 تأسَس المركز الجزائري للبحوث الأنثروبولوجية وما قبل التاريخ والاثنوجرافيا.

أهم الأبحاث الأنثروبولوجية حول الجزائر:

تحوَل المجتمع الجزائري لحقل تجارب كبير في مجال الدراسات الإنسانية، وصدرت العديد من الكتابات حول الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ويمكن تقسيم هذه الكتابات في السياق التاريخي إلى 3 مراحل:

- من 1871/1830: كتابات ذات طابع عسكري جلَها مفبرك.

---

[2] د. بوحسون العربي: **بين التاريخ والأنثروبولوجيا دراسة في الأنثروبولوجيا الاستعمارية**، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية العدد الثاني ص166

- من 1871/الحرب العالمية الأولى: مزيج من الكتابات ذات الاتجاهات المختلفة والمتعدَدة.

- من 1954/1919: كتابات حول الحركات التحررية والحركة الوطنية.[3]

ومن أشهر الأبحاث الأنثروبولوجية حول الجزائر:

1- دراسات Germaine Tillion التي استقرت في الأوراس لأربع سنوات وأسَست لنظرة جديدة للإثنولوجيا الاستعمارية ومن أشهر أعمالها (الحريم وأبناء العمومة).

2- دراسات Jacques Berque الذي يعتبر من الوجوه البارزة في حقل الدراسات المغاربية قام بعدَة أبحاث حول المنهج القانوني المغاربي وقانون الأعراف والعلاقة بين العادات البربرية والعادات الإسلامية، من أشهر مؤلفاته (البناءات الاجتماعية في أعالي الأطلس).

3- دراسات Pierre Bourdieu الذي استقر بالجزائر في إطار تأديته للخدمة العسكرية وبها درس في كلية الآداب، ومن أشهر مؤلفاته (سوسيولوجيا الجزائر) و(أزمة الزراعة التقليدية في الجزائر).

الأنثروبولوجيا في الجزائر المستقلَة:

عشية الاستقلال أتَهمت الأنثروبولوجيا بخدمة الاستعمار واستبعدت كعلم من الساحة الفكرية الجزائرية حتى بداية الثمانينات من القرن الماضي، وفي خضم التجاذب السياسي والاجتماعي الذي عرفته هذه الفترة وأيضا الظروف المحلية الخاصَة جاءت عودة الأنثروبولوجيا كتخصص أكاديمي لأول مرَة سنة 1984 بمعهد الثقافة الشعبية بجامعة تلمسان، وفي 1992 تمَ تأسيس المركز الوطني للأبحاث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية بوهران الذي فتح مسابقة دكتوراه في الأنثروبولوجيا بالشراكة مع جامعات قسنطينة وتيزي وزو وبجاية ومستغانم وتلمسان.
في الأخير يجب الإشارة إلى أنَ الأنثروبولوجيا في الجامعة الجزائرية بحاجة إلى جهود كبيرة لما تعانيه من تهميش وسوء فهم ونقص في التأليف والتوثيق والنشر.

[3] د. بن عرفة ابراهيم / د. بشيرة عالية: **قراءة في أنثروبولوجيا الجزائر من 1830إلى 1962**، مجلة متون المجلد 11،العدد 2، سبتمبر 2019،ص76